

الأسباب وصلتها بالآيات الكونية

د . عبد المجيد بن محمد الوعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾^(١)، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فهذه مباحث منتقاه من كتابي " الدلالات العقدية للآيات الكونية"، رأيت أفرادها لأهميتها، ومن أراد الاطلاع على المزيد فيمكنه الرجوع إلى أصل الكتاب.

وهذه المباحث هي:

الأسباب، وصلتها بالآيات الكونية.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أنواع الأسباب.

المبحث الثاني: منزلة الأسباب في الشريعة.

المبحث الثالث: صلة الأسباب بالآيات الكونية.

المبحث الرابع: العلم بوقت حدوث هذه الآيات الكونية وأسبابها الحسية لا ينافي

كونها آية من آيات الله.

أسأل الله ﷻ أن ينفع بها، وأن يجعلها خالصة لوجه الكريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد المجيد بن محمد الوعلان

١٤٤٣/٤/٣

Awalaan@gmail.com

الأسباب، وصلتها بالآيات الكونية

وفيه تمهيد وأربعة مباحث:

المبحث الأول: أنواع الأسباب.

المبحث الثاني: منزلة الأسباب في الشريعة.

المبحث الثالث: صلة الأسباب بالآيات الكونية.

المبحث الرابع: العلم بوقت حدوث هذه الآيات الكونية وأسبابها الحسية لا

ينا في كونها آية من آيات الله.

تمهيد

الأسباب جمع سبب، والسبب في اللغة يطلق على عدة معان^(١):

فقد يقصد به ما يتوصل به إلى غيره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَانْتَه

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾^(٢).

وقد يأتي بمعنى الحبل، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾^(٣) أي بحبل^(٤).

وهو من الحبال القوي الطويل.

وقد يأتي بمعنى الباب، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَلَهُمْ أُنْجَىٰ إِلَىٰ صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ

الْأَسْبَبَ﴾^(٥) ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾^(٥) أي أبواب السماوات^(٦).

وقد يأتي بمعنى الشفيع، كما في قولهم: "وجعلت فلاناً لي سبباً إلى فلان في حاجتي"، أي

وصلة وذريعة.

وقد يأتي بمعنى الحياة، كما في قولهم: "قطع الله به السبب"، أي الحياة؛ لأنه يتوصل به إلى

المقصود.

وقد يأتي بمعنى المودة، يقال: تقطعت بهم الأسباب أي الوصل والمودات، قال تعالى: ﴿

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٧).

(١) انظر: تهذيب اللغة: ٣١٣/١٢-٣١٤، ولسان العرب: ١٩١٠/٣-١٩١١، والقاموس المحيط: ٨٩، مادة سبب،

ونزهة الأعين النواظر في علم الأشباه والنظائر لابن الجوزي: ١٣٥.

(٢) الكهف: ٨٤.

(٣) الحج: ١٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٤٩/١٧، وتفسير ابن كثير: ١٠٦/٣-١٠٧، وتفسير السعدي: ٩٨١/٣.

(٥) غافر: ٣٦-٣٧.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٧٦/٢٤، وتفسير ابن كثير: ٨٦/٤.

(٧) البقرة: ١٦٦.

وقد يأتي بمعنى الطريق؛ لأنه بسلوكه يوصل إلى الموضوع الذي تريد^(١)، قال تعالى: ﴿إِنَّا

مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَايَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٢﴾ الآية.

والخلاصة أن السبب في اللغة معناه: كل ما يتوصل به إلى المقصود.

والسببية تعني العلاقة بين السبب والمسبب^(٣).

وفي الاصطلاح عند الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود، ومن عدمه العدم لذاته.

فهو أمر ظاهر منضبط، جعله الشارع علامة على مسببه، ويلزم من وجوده وجود المسبب،

ومن عدمه عدمه لذاته^(٤).

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٤٩/١٧، وتفسير ابن كثير: ١٠٦/٣-١٠٧.

(٢) الكهف: ٨٤-٨٥.

(٣) المعجم الوسيط، طبعة مكتبة الشروق، ط ٤: ٤١٢.

(٤) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ١/١٧٠، وشرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول للقرافي: ٧٦،

وشرح الكوكب المنير لابن النجار: ١/٤٤٥، وإتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر في أصول الفقه على مذهب

الإمام أحمد بن حنبل للنملة: ٢/٢١٨.

المبحث الأول: أنواع الأسباب

تنقسم الأسباب إلى نوعين^(١):

النوع الأول: أسباب حسية:

وهي الأسباب التي عرفت عن طريق الحس^(٢) والتجربة، مثل الأدوية، وحصول الكسوف بسبب وقع القمر بين الشمس وبين أبصار الناس^(٣)، ونزول المطر عند تراكم السحب.

النوع الثاني: أسباب شرعية:

وهي الأسباب التي يكون الأصل في اعتبارها أسباباً النصوص الشرعية، كحصول الكسوف تخويفاً من الله لعباده، ونزول المطر بسبب الاستغفار.

وتنقسم الأسباب من حيث الظهور والخفاء إلى نوعين:

النوع الأول: أسباب غير ظاهرة (خفية): وهي ما كان من علم الغيب الذي استأثر الله

به، ولا يمكن أن تعلم إلا عن طريق الشرع، كولادة عيسى عليه السلام من غير أب حيث كانت من

غير سبب ظاهر موجب للحمل، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ

قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤).

النوع الثاني: أسباب ظاهرة: وهي ما كان معلوماً بالتجربة والحس^(٥)، كولادة عموم الناس.

وقد يجتمع في الشيء الواحد سبب ظاهر وسبب خفي، فالكسوف والخسوف لهما أسباب

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠٥ / ٢٥، وإعلام الموقعين: ٣ / ٣٠٣-٣٠٤، ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ١١٠ / ١،

٢٨٩ / ١٦، والشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين: ١٧٦ / ٥.

(٢) الحس: هو الدليل المأخوذ من الرؤية البصرية أو السمع أو الذوق أو الشم. الصحاح: ٥٥ / ٤.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ١٨٥ / ٢٥.

(٤) آل عمران: ٤٧.

(٥) انظر: الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٠٥.

ظاهرة يعلمها الناس عن طريق الحساب وعلوم الفلك، ولهما أسباب غير ظاهرة لا تعلم إلا عن طرق الشرع، فهما آيتان يخوف الله بهما عباده^(١).

ولا تنافي بينهما - أي السبب الظاهر والخفي-؛ لأن الأمور العظيمة كالحسف بالأرض، والزلازل، والصواعق، وشبهها التي يحس الناس بضررها، وأنها عقوبة، لها أسباب طبيعية يقدرها الله حتى تكون المسببات، وتكون الحكمة من ذلك هي تخويف العباد، فالزلازل لها أسباب، والصواعق لها أسباب، والبراكين لها أسباب، والعواصف لها أسباب، لكن يقدر الله هذه الأسباب من أجل استقامة الناس على دين الله، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢)، "ولكن تضيق قلوب كثير من الناس عن الجمع بين السبب الحسي والسبب الشرعي، وأكثر الناس أصحاب ظواهر لا يعتبرون إلا بالشيء الظاهر"^(٣).

(١) انظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ٢٨٩/١٦.

(٢) الروم: ٤١.

(٣) الشرح الممتع على زاد المستقنع: ١٧٧/٥.

المبحث الثاني: منزلة الأسباب في الشريعة - حكمها-

تنقسم الأسباب في الشريعة إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: أسباب شرعية: وهي التي حثت الشريعة على العمل بها ودعت إليها، كالرقية

الشرعية، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾^(١)، وقال تعالى عن هود -

عليه السلام- أنه قال: ﴿وَيَقَوْمٍ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^(٢)، وقال تعالى عن العسل: ﴿فِيهِ

شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾^(٣).

ثانياً: أسباب مباحة: وهي الأسباب التي عرفت عن طريق القدر^(٤) - التجربة-، ولم يكن

بها مخالفة شرعية، وأن يكون أثرها ظاهراً مباشراً، مثل الأدوية.

وهذان الشرطان حتى لا يقول أحد أني جربت هذا الأمر فوجدته نافعاً، كمن يلبس الحلقة

ويعتقد أنها تنفع أو تضر فينتفع^(٥).

ثالثاً: أسباب غير شرعية: وهي الأسباب التي جاءت الشريعة بتحريمها أو لم يثبت كونها

أسباباً عن طريق القدر - التجربة-^(٦).

وقد تكون هذه الأسباب شركاً أكبر، أو شركاً أصغر، أو محرمة^(٧).

(١) فصلت: ٤٤.

(٢) هود: ٥٢.

(٣) النحل: ٦٩.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٤/٢٥٦، ٤٢٦، وفتاوى اللجنة الدائمة: ٨/٣٢٢.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى: ١/١٣٧، والقول المفيد في شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين: ١/١٦٤.

(٦) انظر: الموافقات: ١/٣٠٧.

(٧) انظر: المصدر السابق: ١/٣٢١.

فتكون شركاً أكبر إذا كان السبب خفياً لا تأثير له إطلاقاً، كأن يعتقد أن هذا النجم يفعل بذاته، فهذا شرك أكبر؛ لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا النجم تصرفاً في الكون. وتكون شركاً أصغر إذا اعتقد سبباً لم يثبت كونه سبباً لا شرعاً ولا حساً؛ فهذا نوع من الشرك الأصغر، كأن يعتقد أن دخول النجم الفلاني سبب في نزول المطر؛ لأنه أثبت سبباً لم يجعله الله سبباً، فكان مشاركا لله في إثبات الأسباب^(١)، ولأن الأسباب قد يكون ارتباطها بمسبباتها ارتباطاً غيبياً لا يدرك فكيف يقال: إن هذا الشيء سبب لهذا الشيء وهو غير محسوس؟ ففيه نوع من ادعاء علم الغيب.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾^(٢)، فسمى الله من يشرع أقوالاً وأفعالاً وأحكاماً لم يأذن بها الله سماهم شركاء، فمن جعل سبباً بسبب وهو ليس بسبب شرعي أو قدرى كوني فقد وقع في الشرك الأصغر، لأن الله سبحانه وتعالى لم يأمرنا بهذه الأسباب، فكأنه شرع أسباباً لم يأذن الله بها^(٣).

أو "أن يعتمد على سبب شرعي صحيح مع الغفلة عن المسبب، وهو الله ﷻ وعدم صرف قلبه إليه؛ فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شركاً أكبر؛ لأن هذا السبب جعله الله سبباً"^(٤). فعن زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف، أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟». قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»^(٥).

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبد الله: ٤٥٤-٤٦٠، والقول المفيد في شرح كتاب التوحيد: ٢٠٣/٢.

(٢) الشورى: ٢١.

(٣) انظر: الموافقات: ٣٤٤/١.

(٤) القول المفيد: ١٨٣/١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم: ١٧٢، برقم (٨٤٦).

فإضافة الآية إلى السبب على أنه فاعل بذاته أو أنه سبب ولم يجعله الله سبباً فهذا إخلال بتوحيد الربوبية^(١).

فإذا اعتقد أن الكوكب يفعل بذاته فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه سبب فهو شرك أصغر. وتكون الأسباب محرمة إذا استعمل ما حرمه الله لجلب منفعة أو دفع مضرة، فعن طارق بن سويد الجعفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخمر؟ فنهاه أو كره أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: «إنه ليس بدواء ولكنه داء»^(٢).

والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وأنه ليس لها تأثير البتة، وهذا فيه مكابرة للمعقول.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعل ما ليس بسبب سبباً، بل جعل بعضهم الأسباب فاعلة بذاتها؛ وهذا شرك بالله تعالى.

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبتته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سبباً شرعياً أو كونياً^(٣)، مع الاعتقاد أنها لا تضر ولا تنفع إلا بإذن الله.

فإنكار الأسباب بالكلية قدح في الشرع، والالتفات والاعتماد عليها بالكلية شرك أكبر، والأخذ بها مع التوكل على الله هو دين الإسلام^(٤)، قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ١٦٧/٣٥، والقول المفيد في شرح كتاب التوحيد: ٢٠٢/٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم التداوي بالخمير: ١٥٧٣/٣ برقم (١٩٨٤).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ١٦٨/٣٥، والرد على المنطقيين: ٣٠٥، ومفتاح دار السعادة: ٢٩٢/٢، والقول المفيد في شرح كتاب التوحيد: ١٦٤/١، وكسوف الشمس بين التخويف والتزييف لذياب الغامدي: ٤٩.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: ١٧٥/٨، ٥٢٧، ومنهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٦٦/٥.

تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١﴾.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد، فالالتفات إلى الأسباب ضربان: أحدهما: شرك، والآخر: عبودية وتوحيد، فالشرك أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود، فهو معرض عن المسبب لها، ويجعل نظره والتفاتة مقصورا عليها، وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها وإنزالها منازلها فهذا الالتفات عبودية وتوحيد، إذا لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب. وأما محوها أن تكون أسبابا فقدح في العقل والحس والفطرة، فإن أعرض عنها بالكلية كان ذلك قدحا في الشرع وإبطالا له.

وحقيقة التوكل القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب، واعتقاد أنها بيده، فإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضعف أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه" (٢).

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: " فإذا جمعت بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب استقام قلبك على السير إلى الله، ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم، وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم" (٣).

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: " وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح حيث قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز» (٤)، فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب، ونهاه عن العجز، وهو نوعان: تقصير في الأسباب وعدم الحرص عليها، وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجرئها، فالدين كله، ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه تحت هذه

(١) يوسف: ٦٧.

(٢) مدارج السالكين: ٤٩٩/٣.

(٣) المصدر السابق: ٥٠٠/٣.

(٤) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله: ٢٠٥٢/٤ برقم

(٢٦٦٤).

الكلمات النبوية" (١).

ثم إن الإيمان بالقدر لا ينافي فعل الأسباب، وما سبق في علم الله وحكمه لا ينافي إثباتها، ولا يقتضي إسقاطها، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "وما سبق به علم الله وحكمه حق، وهو لا ينافي إثبات الأسباب ولا يقتضي إسقاطها، فإنه سبحانه قد علم وحكم أن كذا وكذا يحدث بسبب كذا وكذا، فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه، فإسقاط الأسباب خلاف موجب علمه وحكمه، فمن نظر إلى الحدوث بغير الأسباب لم يكن نظره وشهوده مطابقاً للحق؛ بل كان شهوده غيبية ونظره عمى، فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هي عليه في علمه وحكمه وخلقه وأمره" (٢).

بل إن فعل الأسباب مما أمر به الشرع، وهو حاصل بالقدر، ولهذا لما توجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى الشام وعلم في أثناء الطريق أنه قد وقع فيها الطاعون، فاستشار الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ هل يستمر ويمضي في سيره، أو يرجع إلى المدينة؟.

فاختلف الناس عليه، ثم استقر رأيهم على أن يرجع إلى المدينة، ولما عزم على ذلك جاءه أبو عبيدة عامر بن الجراح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: يا أمير المؤمنين، "كيف ترجع إلى المدينة؟ أفراراً من قدر الله؟". فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «نفر من قدر الله إلى قدر الله»، ثم بعد ذلك جاء عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان متغيباً في بعض حاجته، فحدثهم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عن الطاعون: «إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» (٣).

ولما سئل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أريت رقى نسترقئها، وأدوية ننداوى بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله» (٤).

(١) مدارج السالكين: ٥٠١/٣. وانظر: مجموع الفتاوى: ١٧٥/٨، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم: ٨٢/٢.

(٢) المصدر السابق: ٥٠٠/٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون: ١١٢٣ برقم (٥٧٢٩)، وانظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ٨٣/٢-٨٤.

(٤) رواه الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى والأدوية: ٣٤٣ برقم (٢٠٦٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء: ٣٧٢ برقم (٣٤٣٧).

فبين ﷺ: "أن الأسباب التي تدفع بها المكاره هي من قدر الله ليس القدر مجرد دفع المكروه بلا سبب" (١).

فالمسلم يأخذ بالأسباب؛ لأنه مأمور بالأخذ بها، ويعمل وفق السنة لأنه مأمور بمراعاتها، لا لأنه يعتقد أن الأسباب والوسائل هي المنشئة للمسيبات والنتائج، فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، ويتعلق به وحده من وراء الأسباب، بعد أداء الواجب والسعي والعمل واتخاذ الأسباب امتثالاً وطاعة لأمر الله (٢).

ويعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لو شاء لأبطل أثره، ولو شاء لأبقاه، وأنه لا أثر للسبب إلا بمشيئة الله ﷻ (٣).

ويعلم أن الأخذ بالأسباب بمسبباتها، فربط المطر بوجود السحاب، وربط إنجاب الولد بالزواج، وربط دخول الجنة بالعمل الصالح، فالمسبب لا يقع إلا إذا وقع سببه، لكن قد يقع السبب، ويختلف عنه سببه لحكمة يعلمها الله تعالى، فقد يوجد السحاب ولا يوجد المطر، لكن لا يوجد مطر إلا بسحاب، وقد يوجد الزواج ولا يوجد الولد، لكن لا يوجد ولد إلا بجماع بالأسباب المعتادة.

"ذلك أن شأن الأسباب تحصل عند مسبباتها، وقد يختلف ذلك بمعارضة أسباب أخرى مضادة لتلك الأسباب الحاصلة في وقت واحد، أو لكون السبب الواحد قد يكون سبباً لأشياء متضادة باعتبارات فيخطئ تعاطي السبب في مصادفة المسبب المقصود" (٤).

ثم إن الله ﷻ وإن كان خالقاً للأسباب التي تترتب عليها مسبباتها حسب سننه تعالى، فإن ما كان منها شراً فإنه لا ينسب إليه سبحانه كما قال ﷺ: «والخير كله في يديك والشر

(١) رسالة في تحقيق التوكل لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن جامع الرسائل: ٩٤.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ١/١٣٧، والجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم: ١٨.

(٣) القول المفيد في شرح كتاب التوحيد: ١/١٨٣-١٨٤.

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ١٣/٢١-٢٢، وانظر: مجموع الفتاوى: ٧٠/٨، ١٣٣، وكلاماً كثيراً لعلماء الطبيعة في تخلف الأسباب عن المسببات، وأن هذا أمر معروف، في كتاب الشواهد والنصوص من كتاب الأغلال على ما فيه من زيغ وكفر وضلال بالعقل والنقل لمحمد بن عبد الرزاق حمزة: ٢٦-٣٥.

ليس إليك»^(١).

فالسبب وإن كان " قبيحا من فاعله فلا يقتضى أن يكون قبيحا من خالقه، كما أن كونه أكلا وشربا لفاعله لا يقتضى أن يكون كذلك لخالقه؛ لأن الخالق خلقه في غيره لم يقم بذاته، فالمتصف به من قام به الفعل لا من خلقه في غيره، كما أنه إذا خلق لغيره لونا وريحا وحركة وقدرة وعلماً كان ذلك الغير هو المتصف بذلك اللون والريح والحركة والقدرة والعلم، فهو المتحرك بتلك الحركة، والمتلون بذلك اللون، والعالم بذلك العلم، والقادر بتلك القدرة، فكذلك إذا خلق في غيره كلاماً أو صلاة أو صياماً أو طوافاً كان ذلك الغير هو المتكلم بذلك الكلام وهو المصلي وهو الصائم وهو الطائف، وكذلك إذا خلق في غيره رائحة خبيثة منتنة كان هو الخبيث المنتن ولم يكن الرب تعالى موصوفاً بما خلقه في غيره"^(٢).

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه: ٥٣٥/١ برقم (٧٧١).

(٢) منهاج السنة النبوية: ٢/٢٩٤-٢٩٥، وانظر مجموع الفتاوى: ١٢٣/٨.

المبحث الثالث: صلة الأسباب بالآيات الكونية

الكون كله أحياءه وأحياءه من خلق الله وإبداعه، أراد الله سبحانه فكان، وليس لشيء ولا لحي في هذا الكون من أمر الخلق ولا التدبير ولا المشاركة شيء بحال، قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢١﴾﴾^(١).

كما أن هذا الكون قائم على أساس العدل والحق والنظام والإحكام، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٣٧﴾﴾^(٣).

فهذا الكون العظيم خاضع لسنن تحكمه فتقوده لحكم عالية، وأغراض سامية، فليس بين هذه الأحداث والحوادث الجارية في هذا الكون ما هو خال عن حكمة متوحّاة، ولا ما هو جار على غير سنن ثابتة تربطه بكل أجزاء الحياة، فكل هذا الكون يتم على مقتضى التقدير الأزلي الذي هو القضاء والقدر.

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿٤٠﴾﴾^(٤).

وفي آيات الله الكونية حقائق كثيرة تقف العقول حيارى أمامها، وقد تشهد آثارها ولا

(١) سبأ: ٢٢-٢٣.

(٢) الدخان: ٣٨-٣٩.

(٣) ص: ٢٧.

(٤) الأنعام: ١.

تستطيع تعرف كنهها، كحقيقة الروح والعقل.

"فمن أراد أن ينظر في خلق الله وقدرته عليه أن يذكر هذه الحقيقة، وهي ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها، وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال عن إدراكها، فيكون عمله في خلق الله هو النظر والبحث والتحليل والاكتشافات واستجلاء الحقائق الكونية، واستخراج الفوائد العلمية والعملية إلى أقصى حد توصله إليه معلوماته وآلاته، حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه"^(١).

وقد دل القرآن على أن كل شيء يحدث بسبب؛ سواء كان هذا الحدث يتعلق بالجماد أو بالنبات أو بالحيوان أو بالإنسان أو بالأجرام السماوية أو الظواهر الكونية المادية المختلفة"فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات"^(٢).

فمن الأسباب المادية قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣). ومن الأسباب المعنوية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٤).

والقرآن مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية على الأسباب بطرق متنوعة^(٥). والحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها، بما تقع في مستقر العادة، وعنهما يتم كونها. وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضا، فلا بد له من أسباب آخر، ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه، لا إله إلا هو، قال

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لعبد الحميد بن باديس: ٣٦١.

(٢) مجموع الفتاوى: ٧٠/٨.

(٣) البقرة: ٢٢.

(٤) الأعراف: ٩٦.

(٥) انظر: مدارج السالكين: ٤٩٨/٣، والجواب الكافي: ١٩.

تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(١).

"وتلك الأسباب في ارتقائها تنفسح وتتضاعف طولا وعرضا ويحار العقل في إدراكها وتعديدها، فإذا لا يحصرها إلا العلم المحيط"^(٢) - أي علم الله - قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِئَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٣).

ولا فرق في ذلك بين الحادث الذي يقع مرة واحدة، والحادث الذي يقع ملايين المرات فكلها تتوقف في بادئ الأمر على إرادة الخلق والإنشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤)، فالخالق هو الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٦).

وقد جعل الله ﷻ لهذه الآيات الكونية أسباباً حسية وشرعية، جاء ذكرها في القرآن الكريم:

فالأَسباب الكونية: هي ما أجراه الله من العادة من تعلق المسببات بأسبابها، فتراكم السحب سبب لنزول المطر، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾^(٧).

وفي بعض الظواهر الجوية جاء قوله تعالى: ﴿الْمُرْتَانِ أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

(١) الزمر: ٦٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ٩٩٦/٣، وانظر قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن لنديم الجسر: ٦٧.

(٣) الطلاق: ١٢.

(٤) يس: ٨٢.

(٥) الفرقان: ٢.

(٦) القمر: ٤٩.

(٧) فاطر: ٩.

يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوُدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١﴾.

وفي أطوار النبات جاء قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢﴾.

وفي اختلاف الليل والنهار جاء قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِمَنْ حَوسَبَ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِمَنْ يَتَّبِعُوا فَضَلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿٣﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤﴾.

أما الأسباب الشرعية؛ فإن الاستغفار من أسباب نزول المطر، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٥﴾.

(١) النور: ٤٣-٤٤.

(٢) الزمر: ٢١.

(٣) الإسراء: ١٢.

(٤) يس: ٣٧-٤٠.

(٥) نوح: ١٠-١٢.

والتقوى من أسباب فتح بركات السماء والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١).

والظلم والمعصية من أسباب فساد البر والبحر، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢).

أما الأسباب الأخرى الباطلة فإنها لا أثر لها في الآيات الكونية، ولا تعلق لها بالسعود ولا النحوس كما يزعم الكهان ونحوهم، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يخبر عن النبي ﷺ: «أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا» (٣). قال الخطابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كانوا في الجاهلية يعتقدون أن الكسوف يوجب حدوث تغير في الأرض من موت أو ضرر، فأعلم النبي ﷺ أنه اعتقاد باطل، وأن الشمس والقمر خلقان مسخران لله، ليس لهما سلطان في غيرهما، ولا قدرة لهما على الدفع عن أنفسهما" (٤). وقد اقتضت حكمة الله ترتيب المسببات على الأسباب، "مع الاستغناء عنها إظهاراً للقدرة، وإتماماً لعجائب الصنعة، وتحقيقاً لما سبقت به المشيئة، وحقت به الكلمة وجرى به القلم" (٥)، وهذا لا يعني رفض مبدأ السببية بل ينبغي الإقرار بأن لكل سبب نتيجة (٦). فالله يأمرنا أن نأخذ بالأسباب وأن نتبع هذه السنن ونفوض أمرنا إليه وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَ﴾ (٦٤) ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) الروم: ٤١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف: ٢٠٧، رقم (١٠٤٤).

(٤) أعلام الحديث: ٦١٠/١.

(٥) إحياء علوم الدين: ٣٢/٢.

(٦) انظر: كبرى اليقينيات الكونية: ٢٨٦.

لَجَعَلْنَاهُ حُطْمًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي
 تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
 ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا
 تَذِكْرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١﴾.

فسنن الله المادية وأسبابها ثابتة؛ لكن الله ﷻ إذا شاء أن يخرقها خرقها. فقد يوجد
 المسبب بدون السبب المعتاد، فيحصل الولد بدون جماع، مثل خلق آدم ﷺ من غير أب ولا
 أم، وولادة عيسى ابن مريم ﷺ من غير أب، فإن الله ﷻ يخلق السبب، ويخلق بالسبب،
 ويخلق بغير السبب، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
 قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢)، وفي هذا بيان لقدرة الله تعالى على إيجاد المسببات العادية من غير
 سبب ظاهر.

والنار تحرق بإذنه سبحانه وتعالى، فإذا أمرت أن تمتنع من الإحراق امتنعت كمنار إبراهيم
 ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٣).
 والماء مغرق، فإذا أمر أن يمتنع من الإغراق امتنع، وإذا أمر أن يغرق أغرق كماغرقه فرعون
 وقومه، ومنعه من إغراق موسى ﷺ وقومه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ
 فَأُنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ (٤).

(١) الواقعة: ٦٣-٧٤.

(٢) آل عمران: ٥٩.

(٣) الأنبياء: ٦٩.

(٤) البقرة: ٥٠.

المبحث الرابع: العلم بوقت حدوث هذه الآيات الكونية وأسبابها الحسية

لا ينافي كونها آية من آيات الله

لا بد من التفريق بين ما يكون علماً قائماً على أصول مدروسة ثابتة، وبين ما يكون مجرد أوهام وظنون كاذبة. ولهذا التفريق أهمية في معرفة الحق من الباطل، وخصوصاً في هذا العصر إذا علمنا أن فريقاً من المنجمين يموهون على الجهال بأمر العلم بوقت حدوث بعض الآيات الكونية، ويخبرونهم بوقته، فإذا رأوا صدقهم في هذا ظنوا أن قضايهم وأحكامهم النجومية من السعد والنحس، والظفر والغلبة، وما شابه ذلك من جنس توقع الكسوف، فيصدقهم الناس بكل ما يخبرون به، فيكذبون معه مائة كذبة، والمبطل لا يستطيع غالباً نشر باطله إلا بشوب من الحق؛ لأن الباطل المجرّد مكشوف فلا بد من التغطية والتعمية^(١)، ولم يعلم هؤلاء أن الإخبار عن هذا يختلف عن الإخبار عن الآخر.

ولحدوث الآيات الكونية أسباب حسية وأسباب شرعية، ولا تعارض بينهما، ولا بين معرفة وقوع الآية الكونية وبين كونها آية من آيات الله، فمعرفة وقوع الآية له أسباب حسية يمكن معرفتها، كمعرفة نزول المطر، والكسوف والخسوف، فهي ليست من الأمور الغيبية بالنسبة لكل أحد، بل غيبية بالنسبة لمن لا يعرف علم حساب سير الكواكب، وليس بغيبية بالنسبة لمن يعرف ذلك العلم؛ لكونه يستطيع أن يعرفه بسبب عادي، وهو هذا العلم، ولا ينافي ذلك كونها آية من آيات الله تعالى، التي يخوف بها عباده ليرجعوا إلى ربهم، ويستقيموا على طاعته^(٢).

فإن الله ﷻ قدر هذه الآية الكونية، وقدر سيرها وانتظامها واجتماعها في وقت معين، ويحدث بها من التغيرات ما يشاء، ولا يشركه في ذلك أحد، مما يدل على أنها آية من آيات الله، فإذا رأى الناس هذه الآيات وتغيراتها، عرفوا قدرة من خلقها وسيّرها، فعبدوه وحده، وخافوه دون غيره، واستحضروا عظمته وجلاله وكبريائه^(٣).

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ١٩٠/٣٥.

(٢) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة: ٣٢٢/٨.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ٢٩٩/١٦، ٣٤٢-٣٤٧.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى مخيلة^(١) في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه^(٢)، فعرفته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وما أدري لعله كما قال قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيهِمْ﴾^(٣) ... الآية»^(٤).
 لكن ينبغي عدم الجزم بوقوع الآية^(٥)؛ لأن من يخبر بوقوع الآية الكونية لا يكون مصيباً في جميع الأوقات، بل قد يخطئ في حسابه، ولا يلزم تصديقه على كل حال^(٦).
 والله تعالى هو المتفرد بعلم الغيب والجزم بوقوع شيء غائب على سبيل التحقيق من ادعاء علم الغيب الذي نهى الله عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٧).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتاب الله، إلا من اصطفى من عباده؛ فمن قال: إنه ينزل الغيث غداً وجزم به فهو كافر، أخبر عنه بأمانة ادعاها أم لا"^(٨)؛ لادعائه لعلم استأثر الله به، أما إذا لم يجزم بذلك، وجعل هذا الحكم بحسب العادة والتجربة فلا يكفر ولا يفسق، بل يجوز ذلك؛ لأن الله تعالى أجرى العوائد، وجعل لبعض المغيبات علامات تدل عليها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا

(١) المخيلة: موضع الخيل، والمراد هنا السحابة الخليقة بالمطر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٩٣/٢.

(٢) أي: كشف عنه الخوف. المصدر السابق: ٣٦٤/٢.

(٣) الأحقاف: ٢٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ

رَحْمَتِهِ﴾: ٦١٦ برقم (٣٢٠٦).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٥٨/٢٤، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم: ١٦٨/١-١٧٠.

(٦) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري لعبد الله الغنيمان: ١٠٠/١.

(٧) الأنعام: ٥٩.

(٨) تفسير القرطبي: ٢/٧.

بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ آيَنُنْهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْأَنْفُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

فالله تعالى جعل هذا النوع من الرياح علامة على المطر، وأرشدنا إلى ذلك.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال للعباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين استسقى به: يا عم رسول الله ﷺ: كم بقي من نوء الثريا؟ فقال العباس: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعاً بعد سقوطها، فما مضت سابعة حتى مطروا، فقال عمر: الحمد لله، هذا بفضل الله ورحمته (٣).

قال القرطبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تعالى: "وكأنَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد علم أن نوء الثريا وقت يرجى فيه المطر ويؤمل فسأله عنه: أخرج أم بقيت منه بقية؟" (٤).

(١) الأعراف: ٥٧.

(٢) الروم: ٤٦.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي: ٣/٣٥٩، وتفسير الطبري: ٢٧/٢٤٣، قال الذهبي: حسن غريب، انظر: المهذب في اختصار السنن الكبرى للبيهقي، أختصره الذهبي: ٣/١٢٨٦.

(٤) تفسير القرطبي: ١٧/٢٣٠.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢
الأسباب، وصلتها بالآيات الكونية	٣
تمهيد	٤
المبحث الأول: أنواع الأسباب	٦
المبحث الثاني: منزلة الأسباب في الشريعة - حكمها -	٨
المبحث الثالث: صلة الأسباب بالآيات الكونية	١٥
المبحث الرابع: العلم بوقت حدوث هذه الآيات الكونية وأسبابها الحسية	٢١
لا ينافي كونها آية من آيات الله	٢١